ثلاثة أيام في مراكش

المغرب الجديد

السنة 2 العدد 3 - فاتح ربيع الثاني 1355 - يونيه 1936

مدينتان في المغرب لو لم تكونا لما كان للتاريخ المغربي وللماضي المغربي من قيمة عظيمة ومجد أثيل، ولما استطعنا أن نتصور فخر ذلك العهد الماضي وندرك تلك الحياة الحافلة الزاخرة التي تطويها القرون، والتي تجسمها الآثار للعين، وتحركها هذه الجدران وهاته الأزقة الملتوية حيث تتزاحم الأفراد، وحيث تكثر الأسواق وتتعدد المتاجر.

مدينتان كل ما فيهما يحملك على ألا تعيش في الحاضر، بل أن تتصل بذلك الماضي البعيد والقريب، وتستعرض تلك الصور الخلابة التي تتراءى من خلال سطور التاريخ المغربي.

مدينتان قد لا يعجب بهما هذا الفرد الذي لم ير نور الحياة إلا من عينيه، ولم ينفذ نور الماضي إلى أعماق قلبه، ولم تنشرح نفسه لهذه الإحساسات التي يضطرم بها فؤاد المغربي القح، الذي شرب من معين الحياة المغربية في سلسبيل عيونها، فتذوق جمالها، واستنشق عبيرها. لا يعجب بهما هذا الشخص الذي هو عالة على مدنية العصر في كل شيء، حتى في الإحساس بل حتى في تكييف ذلك الإحساس وتصويره، وإنما يعجب بهما هذا الشخص الذي تفتح قلبه، واتسع صدره لضم أشتات الحياة المغربية، من أقدم عهودها وصورها، إلى عهدنا هذا وصورتنا هذه، فكون من مجموع ذلك فكرة صحيحة عن مميزات النفس المغربية وخصائصها وعناصر مباهجها فرغب فيها وأحبها.

مدينتان ترنو دائما إليهما عين المغربي وتتجليان له كلما رمى ببصره إلى الماضي: فهذه فاس في جانب، وهذه مراكش في جانب ثان، وهما قطبا رحى المغرب لا تكاد تتطلع إليهما

وترمقهما حتى تتيقن النفس ويدرك الأحاسيس أن المغرب يتمثل فيهما ويتصور في صورهما.

فاس بأنهارها المنسابة، وعيونها الفياضة، وأزقتها الضيقة، ودروبها المظلمة، ولطف أهلها، فاس بكل ما فيها تمثل لك عصور المغرب وتبين مميزات هذا التراب الذي تحيط به الصحراء من جانب، والبحر المحيط من جانب، فاس كل ما فيها يغريك أن تتصل بمحاسنها وتتعرف إلى أسرارها، وتتذوق جماله، وتستنشق جوها، وأنت متيقن أن الله أجاب دعوة مؤسسها.

ومراكش مدينة لا تكاد تدخلها حتى تجدها في قلبك، وتحتل أعمق مكان فيه، فإني لم أكد أقضي فيها ساعات حتى أخذت بأحشاء قلبي، واستولت على نفسي أيما استيلاء، فلم أغادرها إلا مكرها، ولم أفارقها إلا وكلي شوق إليها.

ثلاثة أيام قضيت فيها، كانت كافية لأشعر أني لا أعرف المغرب ما دمت لا أعرف مدينة مراكش، وأني سوف لا أقدر تراث المغرب ما دامت هذه المدينة تعد في ذهني في زاوية النسيان؛ إذا ما استعرضت المدن المغربية أمام عينك فكل ما في مراكش ينبئك بالماضي، وبهذا الماضي الذي يكون عظمة البلاد وما توالى فيها من دول وما لعبه الزمان بتلك الدول من الأدوار، فرفعها تارة إلى أوج المجد، وتارة خفضها إلى الحضيض، وطوى الدهر جميع تلك الأدوار، ولم تبق إلا هذه الآثار التي نعشق اليوم رؤيتها، ونستوحي منها أخبار الأولين، فتنبئنا عن محاسنهم كما تنبئنا عن مساوئهم.

ومراكش لا تكاد تذكرها حتى تذكر الكتبية التي هي كل يوم عروس في ليلة زفافها، يتطاول النخيل وتتطاول البنايات العصرية، ولكن الكتبية متجردة تزهو كلما رنت لجهة، وتعلو لتناطح السحاب، وترسم عل جبين الدهر آية مراكش الفنية، وتكر الأعوام، وتتوالى الدول، وتتجدد الأحداث، والكتبية شاهدة واعية أن الأجيال تمر مر السحاب، وأن الفن يثبت أمدا طويلا، ليتم سير الأجيال إلى الأنموذج المنشود.

والكتبية قبل أن تشرف على مراكش بعشرات الأميال تشرف عليك فتراها بين النخيل تراقب سيرك، وتحرس طريقك، وتؤنسك في غربتك، وتواصل خطواتك، ولكن الكتبية ترغمك أن تنظر إليها، وأن تتبين جمالها، ويخيل إليك علوها أن بينك وبينها مسافة تجتاز في ساعات، ولكنك تسير وتسير دون أن تحظى بالوصول إليها، فتقف تسائل نفسك عن هذه الإحساسات التي تغمر روحك وأنت تنظر إليها، إحساسات لا تدري مصدرها ولا مكانها من نفسك، ولكنها تتصل بهذه القرون الماضية التي انسلخت، والكتبية قائمة البنيان تراقب ذات اليمين وذات الشمال وتتلفظ كلمات الله العليا خمس مرات في اليوم، فتضيء على تلك السهول والجبال موجة من موجات الحق والجلال، ويتوجه المسلم إلى القبلة خاشعا متعبدا، ويختلي بنفسه أمام ربه مدة من الزمان يتناسى فيها هذه الدنيا وصراعها المر، ويفتح إلى النور الرباني، فالكتبية منارة تهدي البشر إلى عبادة رب البشر، منارة ترمز إلى وحدانية هذا الصانع المبدع، وتحيي في قلب المسلم عناصر الخير، وتذكره بما عليه من واجبات، وما له من حقوق في هذه الحياة وفي حياة الغد القريب.

فسلام على منارة تنير طريق الحق ليتبع، وتكشف طريق الظلام ليجتنب، وسلام على روح منشئها الذي شيدها فأحسن تشييدها، وبث في أجزائها من عناصر الإيمان ما بقى هذه الأحقاب الطويلة يعبق شذاه على أطراف البلاد المراكشية، فيقوى عزم الأمة لتسير في طريق الهدى وتبتعد من الظلام.

هذه هى الإحساسات التي امتلكت على مشاعري، وملأت قلبي من المدينة، فاستعرضت أمام عيني تاريخ هذا البلد الأمين، وأحييت صور هذه الشخصيات التي تعاونت على تكوين مجد مراكش في الماضي، فوفقت توفيقا خالدا بأن تجعل من مراكش عاصمة لهذا القطر المغربي زمنا ليس بالقصير.

وما استقر بي المقام بالحمراء حتى أسرعت أريد زيارة قبر مؤسس المدينة، ولم أكد أقف على ضريحه حتى أخذتني الرهبة، وهزني الجلال، وتخيلت شخصا جمع في نفسه عناصر

الفضيلة، ووحد بين تلك العناصر، واستمد منها قوة عظيمة، مهدت أمامه كل صعب، فسار يخترق السهول والجبال، ينشر دين الله ويدافع عن دين الله، تصورت شخصا جمع بين البساطة وقوة الروح، بين الحلم السديد والنظر الثاقب، لا يطلب ملكا ولكن الملك يطلبه، لا يعمل لسيادة ولكن السيادة تحبو إليه، فيتصرف في الملك والسيادة لا كما تشاء أهواء إنسان لا يهتم إلا بنفسه، ولا يعمل إلا وراء إرضاء نزعاته، ولكنه يتصرف فيهما بروح سامية، تعمل لغاية سامية في هذه الحياة، كانت وستكون أنموذج الأجيال المقبلة ومثلا عاليا لها تحتذى به، فإنك إذا ما اتصلت بسيرته تراءت لك شخصية ممتازة في كل شيء، شخصية من هذه الشخصيات التي سعت إلى الكمال فوفقت في سعيها، واجتهدت أن تنهج نهجا يرضي الضمير، ويرضي النفس الهادئة المومنة بالخير والمثل العليا.

سيطر على امبراطورية شاسعة الأطراف، ممتدة الجوانب، ولكن النفس الأمارة بالسوء لم تسيطر عليه، ولم تسع إليه، فهو لم يشأ أن يسمى نفسه بالخليفة لأن هناك ببغداد خليفة وإن لم يكن أقوى منه ولا أعظم ملكا من ملكه، بل إن ابن تاشفين الورع بعث عبد الله المعافري الإشبيلي وولده القاضي إلى الخليفة العباسي ببغداد يرجوان على لسانه أن يعقد الخليفة له الأمر على المغرب الممتد من الجزائر إلى طنجة وعلى الأندلس. وهنا يقول صاحب الاستقصا: (وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع أنه كان بعيدا عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولا تزال مستندة إلى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله) .

بل إن هذا لأعظم ما يتصور أن يصدر عن إنسان تهيأت له كل أسباب الجاه والسلطة، فلم يغفل عن مصيره، ولم يشأ أن يتناسى تصرفات الدهر وألاعيبه، ولم تغره المظاهر مهما عظمت ومهما اتسعت، بل كان زاهدا في تلك المظاهر، لا يتمتع بما يتمتع به الملوك من زينة وبنين، وإظهار صولة وبأس، بل كان يكتفي عن كل ذلك براحة يشعر بها تتغلغل في أعماق نفسه فيتلمسها في لين وخضوع لرب صولته، هى المرجع الوحيد الدائم. وهكذا

مثوى ابن تاشفين اليوم بسيط كل البساطة، عظيم كل العظمة، بسيط حيث لا بهرجة ولا أتباع، عظيم لأنك تشعر عندما تقف أمام ضريحه أنك أمام شخص يضن الزمان بمثله، فيتولاك الخشوع وتتولاك رهبة الجلال وتنطلق تسبح بحمد الله تعالى.

ولكن لا تمر لحظات وأنت أمام قبره حتى تشعر بحزن ينتابك في أغوار نفسك إذ تتساءل أيجهل الوسط المغربي شخصية هذا النائم هنا، فلا يهتم بمقره، كما اهتم بقبور الآخرين. أترانا ننفذ رغبته حيث ندعه يموت زاهدا كما عاش زاهدا؟ ولكن ليست هذه الرغبة مما تنفذ، بل إن نحن اهتممنا بمقره وأظهرناه عظيما، فليس معنى ذلك إلا أننا نمجد شخصا لم يعش لنفسه وإنما عاش لمثله العليا.